اللغــة العربيــة
والتقدم العلمي والتكنولوجي في هـذا العصـر

بقلـم
شحاده الخوري
خبير وحدة الترجمة في ادارة الثقافة
بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

إن الحديث عن اللغة العربية والمعاصرة التكنولوجية يحمل في طياته هذا التساؤل : هل تصلح اللغة العربية التي كانت وعاء حضارة زاهرة خلال قرون عدة في الماضي، أن تكون وعاء حضارة أخرى، الحضارة القائمة على التكنولوجيا في هذا العصر ؟ وبعبارة أخرى : هل تستطيع اللغة العربية أن تعبّر عن معان ومفاهيم وأعيان ومستحدثات لم يبتكرها أهلها ولا ولدت على أرضهم، بل ولدت في الغرب وابتكرها آخرون ؟

أهمية السؤال والاجابة عنه تكمن في أنه في حال الصلوح والاستطاعة نجمع بين الأصالة المتمثلة باللغة العربية والحداثة المتمثلة بالتكنولوجيا، ونوائم بين دالٍ موروث ومدلول جديد، وفي حال السلب نخسر أحد أمرين : إما لغتنا التي هي مقوم هويتنا القومية وجوهر ثقافتنا لننطق بلغة « الآخر » أو نخسر المعاصرة والحداثة لنعيش خارج حدود الزمن الذي نحيا فيه .

إن هذه القضية ليست من القضايا العارضة أو الهامشية التي يمكن إغفالها أو تجاهلها أو تركها للزمن المقبل الذي قد يجد لها علاجا وحلا، بل هي من القضايا الخطيرة المتصلة بوجودنا ذاته ومصيرنا نفسه، إذ لا وجود سليم لنا إذا خسرنا لغتنا القومية المتمثلة بالعرف الذي ألفناه وأحببناه لأنه يحمل في نبراته أعز ما نملك من عقيدة وأدب وتراث. ولا مصير سليم لنا إذا خسرنا حضورنا في هذا العصر ووقفنا على بابه مشدوهين ــ وهو الذي شهد ويشهد ثورة في العلم والتكنولوجيا وتتفجر فيه المعرفة، كما لم يحدث البتة من قبل .

ولا بد لنا قبل الدخول في هذه المعالجة للموضوع من أن نلقي بعض الضوء على مفهوم التكنولوجيا التي صارت سمة من أبرز سمات هذه الحقبة من الزمن .

لم تعرف كلمة من الشيوع والانتشار على أقلام الكتاب وألسنة الناس ، عامة ، ومن التأثير في العقول والمشاعر ما عرفته كلمة التكنولوجيا في هذا العصر ، حتى خيل للبعض أنها مفتاح التقدم الفرد

وسبيل السعادة الأوحد ، فكأنما هي القوة السحرية التي تبدل أوضع الأفراد والجماعات من حال الى حال ، والمدخل الأمين الى عالم القوة والثروة والسلطان .

والحق أن لفظ « التكنولوجيا » يحمل كثيرا من الغموض وليس له دلالة واحدة عند الناطقين به . ولذا فإن الباحث مطالب قبل الخوض في موضوع التكنولوجيا بأن يقع على تعريف محدد واضح لها ويوضح الفارق بينها وبين العلم ولا سيما أنهما مقترنان في الأذهان حتى ليظن أنهما واحد أو أن بينهما علاقة تلازم لا في الزمن الحاضر فحسب بل منذ نشأتهما وفي كل زمن عبر التاريخ المديد .

إن للتكنولوجيا تعاريف كثيرة نسوق بعضا منها : إنها مخزون المعرفة المتاحة لمجتمع ما في لحظة معينة في مجال الفنون الصناعية والتنظيم الاجتماعي أو هي تطبيق المعرفة العلمية لحل احتياجات الانسان المادية ... وأما العلم فهو ثمرة النشاط العقلي للانسان .

وإذا ما قارنا بين العلم والتكنولوجيا تبرز حدودهما وسماتهما :

- العلم يجيب عن السؤال : لماذا ؟ وهي تجيب عن السؤال : كيف ؟
- العلم يأتي بالنظريات والقوانين العامة ، يستمدها من البحوث المبتكرة ، والتكنولوجيا تحول هذه النظريات والقوانين الى أساليب وتطبيقات عملية تستنبطها .
- العلم يملك صفة العمومية لأنه نتاج فكري ، والفكر واحد عند بني الانسان ، وهي تتميز بالخصوصية لأنها ذات طابع عملي ونتاج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها مجتمع ما .
- العلم لا جنسية له ولا تحدُّه حدود جغرافية أو قومية أو سياسية ، وبالتالي لا وطن له ولا يقع تحت احتكار ، وأما التكنولوجيا فهي من صنع مجتمع معين ووليدة ظروف محددة وحصيلة شروط ينبغي توافرها ، ولذا فهي قد تخص هذا البلد أو ذاك وفي مقدور صانعها أن يخص نفسه بثمراتها وأن يحتكرها ، كما هي الحال اليوم .

ولئن وضع العلم نظرية معينة عن القمر وطبيعته وتنبأ بقدرة الانسان على النزول على سطحه ، فإن التكنولوجيا الفضائية قد استطاعت أن تصل بالانسان الى القمر وتحصل على عينات من تربته وتعيدها الى الأرض لتفحص في المختبرات العلمية .

أما من حيث النشأة ، فالاختلاف قائم كذلك بينهما . إنها أسبق وجودا منه ، وقبل أن يكون كانت . لقد وجدت منذ وجد الانسان لأنها كانت وسيلته من أجل الحفاظ على ذاته بتأمين غذائه وكسائه ومأواه ، وأداته في كفاحه ، مدفوعا بغريزة حب البقاء ضد الطبيعة بقرّها وحرها وسيولها وعواصفها وظلمتها ، والحيوان بسباعه وزواحفه وحشراته . والانسان الآخر من بني جنسه : المنافس والغاضب والناقم والحاقد ... الخ .

إن الخطوات التي قطعها الانسان لايجاد الطرائق والوسائل والأدوات التي تساعده في معركة الوجود ، وتطويره إياها ، إنما ترسم قصة حضارته ، هذه القصة العجيبة التي حاك خيوطها بالعرق والدم والجدّ والنصَب : استخدام الحجارة والعظام والأخشاب ثم استعمال المعادن من حديد ونحاس وبرونز ورصاص ثم صنع العربة والزورق والزجاج والورق ... لقد قامت حضارات العالم القديم على التقنيات التي استحدثها الانسان وطورها فأسعفته في استنبات الأرض والعمل في الزراعة وتأهيل الحيوانات ودرء خطرها وبناء السدود والمساكن

وحياكة الملابس وممارسة الفنون كالنحت والرسم والموسيقى . وقد سارت الأمور على هذا النحو ، حتى تخمرت المعارف العلمية ذات الطابع العملي والتي أسهمت شعوب كثيرة في إيجادها واغنائها في وادي النيل وبلاد الرافدين وشواطىء المتوسط والشرق الأقصى ، فكانت بداية العلم النظري والنظرة الفلسفية عند الاغريق .

وعندما دخل العرب ميدان الحضارة الانسانية بثقة وعزيمة، بعد أن استناروا بهدي الاسلام ، وتفتحت عقولهم للمعرفة بتأثير تعاليمه الداعية الى طلب العلم ، جمعوا في صيغة فذّة العلم النظري والتطبيق العملي ، وحققوا أول لقاء بين العلم والتكنولوجيا ، وأورثوا ذلك الأوروبيين من بعد .

وبعدما أخذ الغرب بالمنهجية التجريبية في مطلع القرن السادس عشر سار قدما في عصر النهضة وما بعده ، فوجدت الصناعة تطبيقا للنظريات العلمية ، واتصل العلم بالتكنولوجيا اتصالا وثيقا في القرن التاسع عشر وحدث بينهما تفاعل وتأثير متبادل : العلم يفتح أمام التكنولوجيا آفاقا جديدة بما يجدّ في ساحته من نظريات وآراء ـــ والتكنولوجيا تمدُّ العلم بوسائل فعالة وتضع بين أيدي العلماء ما يمكنهم من ارتياد المجهول . وتسارعت الخطوات في هذا السبيل ، حتى كانت الثورة العلمية التكنولوجية بعد الحرب العالمية الثانية .

وفي العقود الأربعة الأخيرة ، تشعبت هذه الثورة ، بعد اتساعها ، الى مجموعة من التشعبات في مقدمتها التكنولوجيات الدقيقة ذات التطبيقات المتعددة في المجالات الكثيرة وعلى الأخص مجال الاتصالات والمعلومات ، وثورة التكنولوجيات البيولوجية وثورة هندسة المكوِّنات الوراثية ، وثمة من يتكلم عن ثورة جيولوجية ترمي الى اكتشاف المواد الطبيعية التي تختزنها الأرض والمحيطات ، وثورة في مجال ايجاد مواد جديدة يمكن استخدامها في مجال البناء وصناعة مستلزمات الثورة الالكترونية .

ولعل أهم اختراعات القرن العشرين ، بل العصور كلها ، هو اختراع الحاسب الالكتروني في الأربعينات واجتياز أجياله الخمسة مراحل مذهلة من التقدم تتجلى في تقلص حجمه وازديادقدرته على اختزان البيانات وتحليلها حتى لتقدر قدرة تخزين الترانزستور الواحد من الجيل الخامس منه مليون معلومة في حين يتوقع ألا تزيد مساحة هذا الترانزستور في عام 1990 على مساحة ظفر الابهام ، ومن المتوقع أن يصبح هذا الحاسب آلة ذكية قادرة على إيجاد حلول الكثير من المشاكل على غرار الرجل الآلي (الرابوت) ...

ويتوقع الباحثون أن يكون لهذه الثورة الالكترونية نتائج بعيدة المدى في الدول المصنعة والدول النامية على السواء ، مثل اختفاء كثير من الأعمال القائمة على الجهد العضلي وكثير من الوظائف غير التخصصية وتقل ساعات العمل الأسبوعية وتتبدل العلاقات الاجتماعية وتخلق أعمال ووظائف جديدة تتطلب دربة ومهارة . وقل مثل ذلك في التشعبات الأخرى للثورة التكنولوجية في ميادين البيولوجيا والجيولوجيا والفضاء مما لا يقع تحت حصر ويفتح أمام البشرية أبواب عصر حافل بكل جديد .

إننا إزاء هذه الثورة التكنولوجية العاصفة التي نشأت في البلدان المصنعة ليس في مقدورنا ، كما أنه ليس في مقدور غيرنا من شعوب بلدان العالم الثالث ، أن نقف مكتوفي الأيدي حيث نحن ، إذ أن البلدان المصنعة تسير بخطوات جبارة ولا تتوقف عن السير ، مما يزيد البون بينهما وبيننا في هذا المجال ، وليس من خيار لنا إلا أن نلج هذا الميدان العلمي والتقني بكل الطاقات البشرية والمادية والمالية

التي نملكها . ومن المفيد أن نحدد خطواتنا ونلتمس الوسائل التي من شأنها أن تنقلنا من وضع المشاهدة الى وضع العمل ، ومن دور السكون الى دور الحركة ، ومن حال الاستهلاك الى حال الانتاج ، من موقف الأخذ والتلقي والتقليد الى موقف الفعل والابتكار والابداع ، في سياق خطط محكمة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة التي تعتمد العلوم والتكنولوجيا قاعدة لها ، وتأخذ في حسابها الخامات الطبيعية والقدرات البشرية المتوافرة لدينا ، والحاجات الأساسية للمواطنين وتربط النظام التعليمي بهذه الخطط وتشرك الجمهور الواسع في انجاز المهام التاريخية التي نحن بصددها .

ومن هذا المنطلق أخذنا نسمع منذ وقت ليس ببعيد بالدعوة الى نقل التكنولوجيا من البلدان المتقدمة صناعيا الى البلدان العربية ، وعقدت من أجل هذا الغرض اجتماعات ومؤتمرات عديدة .

ونستطيع أن نلتمس في هذا الموضوع بعض الحقائق :

- إننا لا نستطيع أن نعيش في معزل عن العالم أو نغضّ الطرف عما يجري فيه وما يستحدث في رحابه، في وقت طغى فيه الاعلام وازداد-الاتصال وتقلصت المسافات بين البلدان والقارات .

- في الواقع الراهن نستورد منتجات التكنولوجيا بأثمان غالية ندفعها من خامات أرضنا العربية ومن ثمرات هذه الأرض وجهود أبنائنا ، فنحن مستهلكون لا منتجون .

- ليس المهم أن ننقل التكنولوجيا ، وإن كان هذا النقل يقتضي الكثير من الجهد والنفقة ، بل المهم توطين العلوم والتكنولوجيا في الأرض العربية واستنباتها فيها ، لأن هذه المعاصرة، التي غدت ضرورة حياتية ، لا تعني التقليد والاتباع ، أو النقل والاستهلاك بل هي الفهم والتمثل والألفة والمعايشة والمواءمة ثم الابتكار والابداع ... إنها السبيل الى امتلاك القدرة بل صنع القدرة من أجل حفظ الذات والحصول على ما يضمن السلامة والأمن والحرية والكرامة في عالم عاصف تحركه المطامع والنزوات ، والطريق إلى استئناف دورنا الرائد في عالم المعرفة والعلم .

وحريّ بنا أن نعلم ، ونحن في هذا السياق ، أن التكنولوجيا المعاصرة التي نجدها اليوم في الغرب والتي هي سرُّ قوته وجبروته ، بل وسيلته الى استنزاف خيرات الشعوب والتحكم بمصائرها ، لم يبتدعها الغرب من عدم ، ولا تفرّدَ في استنباطها ، بل هي الحلقة الأخيرة من سلسلة الاكتشافات والابتكارات التي لم تنقطع والتي أسهمت فيها أمم وشعوب كثيرة منذ بدأ الانسان يعمل عقله ويده للتغلب على الظروف القاسية التي تكتنفه وايجاد ظروف أوفر أمنا وسعادة له ... وقد كان للعرب ، خلال مئات السنين فضل الريادة في مضمار الكشف والابداع ، وأضافوا الى ما أخذوه عمن سبقهم اضافات مهمة في ميدان العلوم والتكنولوجيا ، فضلا عن المواءمة بينها انطلاقا من نظرتهم الى الانسان وَحْدةً قِوامها الفكر والعمل .

فلئن قبسنا اليوم مما حصّل الآخرون ، فقد سبق لنا أن أعطينا الكثير ، ويشهد مفكرو الغرب أنفسهم بأن الغرب مدين للعرب وإنه استنار بما قبس من علومهم ومعارفهم .

وينبغي التأكيد أننا ، ونحن نتطلع الى الانعتاق من حال التخلف التي أورثتنا إياها عهود عانينا فيها التسلط والقهر ، ونقبل على المعاصرة التكنولوجية دون وجل أو تردد . لنتمسك في أن نظل « نحن » محتفظين بمقومات وجودنا القومي وبتراثنا الروحي والخلقي الذي هو جوهر أصالتنا وسمة

شخصيتنا المميزة .

إن من مقومات وجودنا القومي الذي نحرص على التمسك به ونحن نواجه قضية المعاصرة التكنولوجية اللغة التي ننطق بها، اللغة العربية التي انتقلت الينا ، منذ عصور موغلة في القدم ، فحملت الينا تراث الأجيال المتعاقبة عقيدة وفكرا وشعورا ، واستوعبت ثقافتنا فغدت وعاءها وعنوانها .

• إن اللغة العربية ليست شيئا منفصلا ، كساء نرتديه عندما نشاء ونخلعه عندما نشاء ، بل هي شيء منا نعيشه منذ الطفولة حتى النفس الأخير .

إنها أهم مقومات شخصيتنا وأبرز طابع لهويتنا القومية .

• إن هذه اللغة هي مستودع القيم والتجارب التي انتقلت الينا ، وتختزن ثقافة الآباء والأجداد، ومجالي إبداعهم وعطائهم ، وهي فوق ذلك بل قبله لغة القرآن الكريم ولسان الوحي ولغة الرسول الأمين ، وبها ، دون غيرها ، تتلى الآيات البينات في طول الدنيا وعرضها آناء الليل وأطراف النهار .

إن حرصنا على التمسك باللغة العربية في مواجهة المعاصرة التكنولوجية يتطلب منا أن تكون العربية وسيلة التفكير والتعبير في مجال العلم . ومن أجل بلوغ هذا الهدف ، ينبغي أن يكون التعليم ، وعلى الأخص تعليم العلوم والتكنولوجيا ، في جميع مراحل التعليم ، بما فيها التعليم العالي ، باللغة العربية .

وواقع الحال ، أن العلوم التكنولوجية لا يتم تعليمها باللغة العربية في جميع الأقطار العربية ، ولا سيما في المرحلة الجامعية . فثمة قطر واحد هو سورية ، قد ابتدأ التعليم فيه باللغة العربية منذ ما ينوف على ستة عقود ثم استمر كذلك حتى الآن في كل مستوياته وفروعه وتخصصاته . وثمة أقطار عربية تسلك الطريق الى تعريب العلوم بهمة عالية ، وقد شرعت ، بعد تعريبها العلوم الاجتماعية والانسانية في تعريب العلوم الأساسية والتطبيقية في مراحل مختلفة من السلم التعليمي . وفي طليعتها العراق والجزائر . وثمة أقطار عربية أخرى ترغب في التعريب وتتلمس دربها اليه ولكنها لم تخطُ في سبيله سوى خطواتٍ متواضعة .

لقد تنبّه قادة الفكر ورجال الثقافة العرب إلى هذا الأمر « تدريس العلوم بغير العربية » وتناولوه بالدرس والتمحيص، وعقدت من أجله الندوات والمؤتمرات وصدرت التوصيات والقرارات، ولكن الحصاد الفعلي كان قليلا.

ولكن ماذا يعني أن يكون تدريس العلوم ، ولا سيما في المرحلة الجامعية ، بغير العربية ؟ إنه يعني أن العربية لا تصلح لغة علم وتعليم ، ولذا فإنه يستعاض عنها بلغة أخرى ، هي حصرا الانجليزية في بلدان المشرق العربي ووادي النيل والفرنسية في بلدان المغرب العربي .

فهل هذه هي الحقيقة ؟

إن هذا الزعم وهم أو بطلان . هو وهم لأن دعاة هذا الاتجاه الذي ندعوه « التغريب » مقابل « التعريب » ، اذا تركنا جانبا من كان سيء القصد منهم وغرضه الكيد للعرب والعربية ، هم أناس قد أتموا اختصاصهم العلمي في بلد أجنبي وبهرهم التقدم العلمي في ذلك البلد ، فخيل اليهم أن للعلم لغة دون سواها أو لغات قليلة تصلح له وأن ثمة لغات لا تصلح أن تكون لغة علم وتعليم منها اللغة العربية ، التي هي لغتهم أصلا .

وبالطبع فإن هذا الاعتقاد خاطىء لأنه لم يكن للعلم خلال التاريخ لغة واحدة بل تغيرت

اللغات التي حملت مشعله من حقبة زمنية إلى أخرى ، وفي الوقت الحاضر لا تحتكر العلم والتكنولوجيا لغة واحدة، بل تتقاسم حمل رايته لغات عدة كالانكليزية والروسية والألمانية والفرنسية . وليست اللغة العربية أقل من هذه اللغات قدرة على أن تكون لغة علمية ، وإن كان ثمة عجز في مجال ما، فليس مرده قصورها بل تقصير الناطقين بها عن العناية بإيجاد المصطلح الملائم والتصدي لاغنائها بالترجمة والتأليف .

وهذا الزعم بطلان تدحضه وقائع عدة وتظهره عاريا من الصحة :

• لقد استطاعت اللغة العربية ، في القرن الثاني للهجرة وما تلاه أن تواجه علوم الأقدمين من فرس وهند ولا سيما علوم اليونان ، فتستوعب ألفاظها ومعانيها ثم تفسح صدرها لما أبدعه العلماء العرب وأضافوه ، فإذا بالريادة تعقد لها بضعة قرون متوالية .

• وفي النصف الأول من القرن الماضي ، بدأ التعليم الجامعي في مصر بالعربية واستمر أكثر من ستة عقود ، ووضعت بالعربية ترجمات ومؤلفات قيمة ، وكذلك جرت تجربة في بيروت ناجحة ــ الجامعة الأمريكية (كلية الطب) ــ إلا أن رياح الاستعمار قد أطفأت المصباح .

وأما دمشق فقد تواصل فيها التعليم بالعربية في مستوى الجامعةمنذ عام 1919 حتى اليوم وفي جميع الفروع والاختصاصات وبنجاعة ظاهرة .

• وقد شهد العالم بأسره على ما تتميز به العربية من الحيوية والغنى والمرونة والقدرة على تقبل الجديد وتوليد اللفظ ، وقدْر ما تحمل من إرث علمي إنساني كبير وما تتصف به من قدرة على الوفاء بسائر الأغراض ، فاعترفت منظمة الأمم المتحدة والمنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة والمنظمات والوكالات الدولية الأخرى بأن العربية لغة عالمية حية واعتمدتها لغة رسمية الى جانب اللغات الخمس الأخرى : الانكليزية والفرنسية والأسبانية والروسية والصينية .

واذا ما خصصنا بالذكر التعليم ولا سيما العالي منه في حديثنا عن التعريب ، فإن مبعث ذلك أهميته في تكوين الانسان وبناء المجتمع . ولكن الهدف في الحقيقة هو أبعد من ذلك إذ هو تعريب الحياة برمتها وبكل وجوهها والمجتمع بكل أبعاده وذلك كيما تكون اللغة العربية لغة الانسان العربي أيا كان وحيث كان .

والمسألة ليست ذات وجهين ولا تقبل حلين . ثمة خيار واحد هو التعريب ، واذا صح نقاش ففي الطرائق والوسائل والمراحل لا في المبدأ .

إن المرء لا يختار لغته ، لأنها قدرهُ المتصل بوجوده ومصيره . ومن اتخذ لغة غير لغته الأصل ، في التعليم أو المعاش كان كمن تنكر لوالديه أو جحد فضلهما عليه أو حطَّ من قدرهما ، وحسب اللغة قيمة ورفعة أن تكون من مقومات القومية ومدعاة الانتماء الى الأمة وطابع الحضارة وسمة الثقافة .

إن انتشار لغة ما معزة لأهلها وقوة ، وانحسارها مهانة لهم وضعف ، ولذلك نجد الأمم القوية تبذل الجهد والمال لنشر لغتها في أصقاع غير صقعها وتنشىء المجامع العلمية للحفاظ عليها . وفي ضوء هذه الحقيقة ندرك تماما مسلك الاستعمار في مشرق الوطن العربي ومغربه إذ بذل جهودا مستميتة لاضعاف اللغة العربية وتضييق مدى انتشارها : حاول أن يطرد اللغة العربية من الحياة العامة ، وأن يجعلها ترتبط في أذهان الناس بالتخلف الاجتماعي ، وأن يفتت وحدة اللغة العربية بلفت

النظر الى اللهجات واعتبارها بمنزلة تضاهي منزلة الفصحى ، وأن ينفّر الناس من لغتهم باتهامها بالجمود والقصور والعسر ، وأن يضعف أثرها الاجتماعي بجعل اللغة الأجنبية سبيل الحصول على الرزق والمكانة الاجتماعية .

واختلفت السبل التي سلكها الاستعمار فتراوحت أساليبه بين المحاولات الاستيعابية الكاملة للشعوب المستعمَرة في لغتها وثقافتها كما هي الحال في الاستعمار اللاتيني ، وبين المحاولة التهميشية للغات والثقافات المحلية وتسييد لغة المستعمر وثقافته في مجالات الحياة العامة وفي السياسة والادارة والاقتصاد والثقافة والعلوم والتكنولوجيا ويتمثل ذلك بالاستعمار البريطاني .

كل ذلك كان له أثر في البلدان العربية التي عانت وطأة الاستعمار ، وقام من يشكك في كفاءة اللغة العربية مأخوذا بالتضليل . وعلى الرغم من انقضاء عشرات السنين على جلاء المستعمر والحصول على الاستقلال ما زال أثر هذا الضلال ساريا .

وإذا لم يكن للعلم وطن ، فإن للعلماء ورجال العلم أوطانا . ليست الغاية أن يكون لدينا حملة شهادات وخريجو جامعات يرطنون بالأجنبية ولا تصلهم بأبناء جلدتهم إلا أوهن الأسباب ، بل الغاية أن يكون من أبنائنا علماء ورجال علم يفكرون بالعربية ويعبرون بها ويتعاملون بعفوية وصدق مع مواطنيهم ويضعون خبراتهم في خدمة التنمية للنهوض ببلدهم الى المستوى المنشود .

في هذه الحال يسكن العلم عقولنا وجامعاتنا ويتجول في حقولنا ومعاملنا وينبت ويزهر ويثمر في مدارسنا ومختبراتنا ، وتصبح المعرفة نبضا في عروقنا ونسغا في أجسامنا لا حلية نتزين بها أو برقعا نخفي وراءه جهلنا وغربتنا .

وهذه الدعوة الملحة الى تعريب التعليم العلمي ليست بدعة أو ردة بل هي دعوة الى تصحيح خطأ وعودة الى أصل . ولسنا نحن العرب أول من دعا الى ذلك فإن شعوبا أقل منا عددا وأصغر رقعة أرض وأضأل تراثا قد سبقتنا الى هذا الأمر وأخذت تدرّس العلوم والتكنولوجيا بلغاتها القومية . مثل هذا فعلت اليونان واليابان وبلغاريا وفنلندا وهنغاريا ... والأغرب من هذا كله أن اسرائيل منذ أنشأتها الصهيونية العالمية في فلسطين العربية بؤرة عدوان وتوسع وتسلط ضد الوطن العربي كله ، قد أحيت اللغة العبرية التي تعتبر لغة ميتة مندثرة لتجعل منها لغة حية تدرس بها العلوم والتقنيات في جميع مراحل التعليم .

إن أهمية التعريب لا ترق اليها شك ، وليس من يجهل أن ازدهار اللغة القومية كان دوما اشارة تدل على قوة الأمة ومناعتها ، وأن حركات التحرر والانبعاث كانت تبدأ باحياء اللغة القومية .

ونضيف الى هذا أن لا حياة للغة لا تفي بحاجات العصر وتخدم متطلباته الفكرية والثقافية ، ولا تنمية حقيقية في ظل الازدواج اللغوي والاغتراب الثقافي . إن عماد التنمية هو الانسان . وليس يستطيع هذا الانسان أن يعطي ما يرغب في عطائه إلا اذا كان منسجما مع نفسه واثقا من قدرته متفاعلا مع أقرانه وأبناء قومه .

ولا بد من التنويه هنا بالاتجاهات الايجابية التي أقرها المؤتمر الثاني لوزراء التعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي الذي انعقد في مدينة الحمامات بتونس من 20 — 23 تشرين الأول/أكتوبر 1983 وهي :

1 — تأكيد مبدأ التعريب في مجال التعليم العالي وضرورة البدء بتنفيذه .

2 ــ ضرورة الخروج من الحديث النظري عن التعريب الى اتخاذ القرار في ذلك على المستويين القومي والقطري .

3 ــ اتخاذ أسلوب التدرج في التعريب وفق خطط مرسومة شريطة الالتزام بها وتنفيذها في مواعيد محددة .

وتثبيتا لهذا الاتجاه أوصى المؤتمر بإحداث المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ، هذا المركز الذي تطلعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الى اقامته وأعدت الدراسات اللازمة بشأنه كيما يساعد على تعريب التعليم العالي بتأمين احتياجاته من الكتب والمراجع والبحوث والدراسات في مختلف ميادين المعرفة والعلوم والتكنولوجيا عن طريق الترجمة والتأليف والنشر ، ويساعد على خدمة الثقافة العامة بترجمة روائع الأدب والفكر العربي قديمه وحديثه بترجمتها اليها . ويمكن لهذا المركز أن يستثمر الجهود التي سبق أن بذلت في وضع المصطلحات العلمية في أعمال الترجمة والتأليف التي سيقوم بها . وقد تكرمت دولة الامارات العربية المتحدة باستضافة هذه المؤسسة الهامة .

ومن المهم أن نشير الى أن تعريب التعليم العلمي لا يعني البتة إهمال تعليم اللغات الأجنبية في مدارس الوطن العربي وجامعاته ولا يتعارض مع إكساب المتعلم لغة أجنبية تكون أداته للاتصال بالثقافة الأجنبية وبمصادر العلم والمعرفة بتلك اللغة ولكنه يتعارض مع إحلال اللغة الأجنبية محل العربية . إن التعليم باللغة الأم ليس هو الأوجب فحسب بل هو الأجدى وقد دلت الدراسات والتحريات أن المتعلم يستوعب ما يسمعه أو يقرأه بلغته الأم أكثر مما يستوعب ما يسمعه أو يقرأه بلغة أخرى . واذا ما جرى التعليم بالعربية فإن دراسة أية لغة أجنبية أخرى تحمل للمتعلم النفع وتفتح له نافذة على الثقافات الأخرى . إن التعريب انفتاح واغتناء لا انغلاق وافتقار .

واذا ما أردنا أن نصل بالبحث الى جوهر الموضوع نشير الى أن مناهضي التعريب يزعمون أن العربية تفتقر الى المصطلح العلمي وبالتالي فليس من سبيل الى اتخاذها لغة للعلوم والتكنولوجيا الحديثة .

وإني لحريص على مناقشة هذا الرأي .

إن المصطلح أداة للتأليف والترجمة ، وهو ضرورة ماسة للتعريب ، بيد أنه ينبغي أن نلاحظ أن النص ولو علميا ليس جملة مصطلحات بل هو شرح وتفسير وايضاح ، إضافة الى عدد من الألفاظ الفنية . إن الكتابة عن التلفزيون مثلا : تركيبه ، آليته ، استخدامه للأغراض التعليمية والتثقيفية شيء ولفظة تلفزيون وحدها شيء آخر ، وإن استخدام كلمات أجنبية بلفظها لعدم العثور على مقابلات عربية لها ينبغي ألا يؤخر التعريب . إذ خير لنا أن نستخدم فيما نؤلف ونترجم بعضا من الألفاظ الأجنبية من أن نكتب ونعلم بلغة أجنبية .

هذا ولسنا نحن العرب نواجه وحدنا مسألة المصطلح ونتعرض للغزو اللغوي ، فإن أكثر لغات العالم تواجه هذه المسألة بسبب كثرة المصطلحات التي تستنبط كل يوم للدلالة على الجديد . إن المخترع أو المكتشف هو الذي يطلق على الجديد اسمه بلغته وتعمل اللغات الأخرى على تدبر أمرها لاقتباس هذا الاسم أو لايجاد مقابل له .

ولقد سلك العرب قديما ويسلكون اليوم مسلكا محددا في ايجاد المقابلات العربية للمصطلحات ، ويمكن أن ندعو هذا المسلك منهجية المصطلح .

ففي عصر الازدهار العباسي لم يقرأ العرب العلوم باليونانية أو الفارسية أو الهندية بل عمدوا الى

ترجمتها الى العربية ، ووضعوا مصطلحات كثيرة تدل على الأعيان والمعاني ، وكانت ألوفا مؤلفة . والألفاظ الجديدة إما عربية خصصت لمعان محددة كالذبحة والربو والاستقساء والسرطان والخانوق وذات الجنب أو عربوها فقالوا التهاق والقولنج وغير ذلك.

ودخلت هذه الألفاظ كلها لغة العرب ومعجماتها القديمة وانتقلت عبر الزمن الينا وما زالت تستعمل فيما وضعت من أجله .

لم يكن في تلك الحقبة مجامع علمية أو لغوية أو لجان فنية ، ولكن المترجمين اجتهدوا وصوّب واحدهم ما أخطأ به الآخر ، وطالما تُرجِم كتاب أكثر من مرة لتجديد النقل ألفاظا وعبارات .

ويمكن تلخيص القواعد التي اتبعوها بما يلي :

1 — تضمين الكلمة العربية معنى جديدا غير معناها السابق .

2 — اشتقاق ألفاظ جديدة من أصول عربية أو معربة .

3 — إيجاد مقابلات عربية لألفاظ أجنبية بمعانيها .

4 — تعريب كلمات أجنبية واعتمادها .

وهذه الطرائق ما زالت صالحة حتى اليوم .

وفي العصر الحديث قام رواد الثقافة والعلم ومن تصدى للتأليف والترجمة بالعناية بالمصطلح ، بداية من القرن الماضي وحتى اليوم ، واستحدثوا ألوف المصطلحات الحضارية والعلمية وأصدروا المعاجم العامة والمتخصصة ونشأت المجامع العلمية واللغوية : مجمع اللغة العربية بدمشق (1919) ومجمع اللغة العربية بالقاهرة (1932) والمجمع العلمي العراقي (1947) ومجمع اللغة العربية الأردني بعمان (1976) وأقامت هذه المجامع اتحادا لها يجمع أعمالها وينسق جهودها لتحقيق أهدافها المتشابهة . وأسهمت الجامعات في خدمة المصطلح العلمي لحاجتها اليه في المؤلفات والمترجمات وشكلت لهذا الغرض لجانا متخصصة .

وحرصت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي تختص بالجانب الثقافي والتربوي والعلمي من نشاط جامعة الدول العربية على أداء دورها في هذا المضمار فتبنت عمل مكتب تنسيق التعريب بالرباط الذي صار جهازا من أجهزتها وعهدت اليه بأعمال جمع حصائل ما تصل اليه جهود المجامع والجامعات واللجان والأفراد وتنسيقها وادراجها في مشروعات معاجم تعرض على مؤتمرات التعريب للموافقة عليها .

وحسبي أن أذكر بعض الأرقام القليلة لأبين الجهد الكبير الذي بذل ويبذل في خدمة اللغة العربية باغنائها بالمصطلح العلمي العربي :

- ☐ بلغ عدد المعاجم التي أعدها مكتب الرباط ووافقت عليها مؤتمرات التعريب الثاني والثالث والرابع (24) معجما ، وقد أعد المكتب (20) معجما آخر لعرضها على المؤتمرين الخامس والسادس القادمين .
- ☐ بلغ عدد الأعمال المعجمية الجادة في حقل الطب وحده ، والتي صدرت بين عامي 1883 و 1983 ثلاثة وخمسين معجما طبيا بعضها طبي عام وبعضها في أحد فروع الطب .
- ☐ وبلغ عدد الكتب الطبية التي ترجمت من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية خلال عشر سنوات فقط 1970 — 1980 (66) كتابا ... الخ .

وقد اتبع كل من تصدى لموضوع المصطلح وايجاد المقابل العربي ، في العصر الحديث ، من هيئات وأفراد ، قواعد محددة موصولة النسب

بالقواعد التي اتبعت في عصر الازدهار العربي أيام الحكم العباسي . وقد انتهى النظر في أمر هذه القواعد التي وضعتها المجامع اللغوية ورسخها الاستعمال الى وضع منهجية في الندوة التي عقدها مكتب تنسيق التعريب بالرباط عام 1981 وصاغتها في ثماني عشرة مادة ... وإنني لأود أن ألفت النظر الى مضمون المادة الرابعة التي تدعو الى استقراء وإحياء التراث العربي وخاصة ما استعمل منه أو ما استقر منه من مصطلحات علمية صالحة للاستعمال الحديث وما ورد فيه من ألفاظ معربة .

صحيح أن رواد التأليف والترجمة وأعضاء المجامع العلمية واللغوية العربية قد تفطنوا الى هذا الأمر واستفادوا منه ، ولكنني أعتقد أنه ما زال في المعجمات العربية القديمة والمؤلفات العلمية ، المخطوطة والمطبوعة ، المحققة والتي لم تحقق بعد، كنوز من المفردات التي ينبغي نبشها والاستفادة منها لجعلها مقابلات لمصطلحات علمية جديدة ولذا فإننا ندعو الى إجراء مسح لعلومنا القديمة من طب وصيدلة وهندسة ورياضيات وفلك وزراعة وموسيقى وفلسفة وسواها بقصد استحياء المصطلحات المبثوثة فيها للافادة منها . ولا بد لانجاز هذا العمل المهم من تفرغ فريق من العلماء العرب له يعتمد في تحرياته على التقنيات الحديثة ويأخذ بأنجع الأساليب .

إن الأوروبيين قد رجعوا الى وضع مفرداتهم العلمية الى الأصول اللاتينية واليونانية ، وعندما لم يجدوا طلبتهم سموا بعض المكتشفات بأسماء مكتشفيها .

ولقد وقع تقصير واضح من المؤلفين العرب في بعض الأحيان إذ عمدوا الى التعريب بدلا من الاستفادة من الأصول فقالوا : الجغرافيا وكان في مقدورهم أن يقولوا : تقويم البلدان ، وقالوا : علم الاجتماع ، وكان في مقدورهم أن يستعملوا : علم العمران ، وكلا اللفظين : تقويم البلدان وعلم العمران راسخ في تراثهم الفكري .

وكذلك ألفت النظر الى ما تضمنته المادة السابعة عشرة التي أجازت التعريب عند الحاجة وخاصة المصطلحات ذات الصيغة العالمية مثل الالكترون والترانزستور والكالوري والترام ... الخ وكذلك يصح التعريب في الألفاظ المركبة من أحرف أو مختصرات متعارف عليها دوليا (اليونسكو ، الفاو، اليونيدو) أو الأسماء الموضوعة تخليدا لذكرى عالم أو مخترع مثل : فولت ورونتجن وكوري وأمبير ، أو الأسماء الكيميائية للعناصر الحديثة الاكتشاف مثل : بلوتونيوم ويورانيوم وألومينيوم وهافنيوم. فهذه كلها تعرب بألفاظها علما بان بعض علمائنا المتشددين حاولوا أن يجدوا لها مقابلات عربية فكانت أصعب على الفهم والذاكرة من الكلمات الأجنبية المعربة ففشلت محاولتهم ولم يؤخذ بالألفاظ التي اقترحوا استخدامها.

وفي حقيقة الحال لا يكفي وضع القاعدة ضمن المنهج العام ، بل المهم حسن استخدام هذه القواعد وتطبيقها . فإذا تعذر ايجاد مقابلات عربية للألفاظ السابق ذكرها لأن في ذلك افتعالا وإقحاما ، فإنه أمكن واستسيغ وضع مقابلا ت عربية لألفاظ أخرى بالرجوع الى أصولها ومعانيها ، وهي ، في الأساس ، صفات مثل : مستقيمة الأجنحة لكلمة أورتوبترا وكلمة : رملية لـ أريناريا ، وشوكيات الجلد لـ ايكاينو درماتا ، في نطاق المصطلحات المتعلقة بعلمي النبات والحيوان .

وأما الاقتباس من كلام الناس وأهل الصناعة فأمر ممكن ولكن بحذر وانتباه . فمن المقبول أن تستعمل الألفاظ التالية : ورشة Workshop وفرشاة Brush وقلاووظ Screw وحنفية Tap ، ولكن هذا الاقتباس لا يكون موفقا دوما .

واذا كان لايجاد المصطلح قواعد قننت في منهجية بعد أن أجمع عليها أهل اللغة والاختصاص، فإن لوضع المصطلح طرائق متفق عليها أهمها : الاشتقاق ، وهي الطريقة المفضلة في توليد الكَلِم ويكون بأن تُنزع كلمة من كلمة أخرى على أن يكون بينهما تناسب في اللفظ والمعنى . وبهذه الطريقة وضعت ألوف من الألفاظ قديما وحديثا كالمبذر من البذر والمُتحف من الاتحاف والمِقود من قاد ، وفارزة من فرز ... إنه سبيل العربية الى التوالد الحي والتكاثر الخلاق ، ومنها المجاز أي استخدام اللفظ في غير ما وضع له مع قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي . فالطيارة تدل في الأصل على الفرس الشديد والسيارة تدل على القافلة ، ثم أطلقتا حديثا على الآلتين المستحدثتين اللتين تجوبان اليوم الأرض والفضاء .

وثالثهما النحت وهو انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر على أن يكون تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه ، وقد قيل قديما البسملة والحوقلة وعبشمي وعبسقي وقيل حديثا برمائي ولاسلكي وكهرحراري وكهرطيسي وغيرها . ورابعتها التعريب وهو أن تلفظ الكلمة الأجنبية على طريقة العرب : فقيل قديما : السوسن والدرهم والبلور والفلسفة وقيل حديثا : الترام والسينما والفلم والالكترون .

إن اقتباس اللغات بعضها عن بعض أمر معروف ومشروع وفي لغات الغرب مئات من المفردات من أصل عربي .

إن الحديث عن المصطلح عامة والمصطلح العلمي والتكنولوجي خاصة ، حديث يطول لتشعب دروبه وسعة آفاقه . وتقضي الأمانة بأن نؤكد أن حالنا اليوم أفضل بكثير مما كانت في القرن الماضي أو في النصف الأول من هذا القرن ، إذ صار لدينا معاجم عامة ، وإن لم تكن كافية ، ومعاجم متخصصة في كثير من الفروع العلمية ، وقد تعددت الجهات التي تعنى بالمصطلح من مجامع وجامعات ولجان ، وتكاثفت التجارب واتصلت في هذا الميدان .

ولكننا ، والحق يقال ، ما زلنا نفتقر الى الكثير ، وأخص الأمور التالية :

1 — أن نستكمل المعاجم العامة الثنائية اللغة بعد دراسة متأنية للحاجات ونستكمل المعاجم المتخصصة الثنائية والثلاثية اللغات لتشمل جميع العلوم والتكنولوجيات التقليدية والمستحدثة ، وسد الحاجة الى المصطلح في كل مستويات التعليم العام والجامعي .

2 — أن ندرس المصطلحات المختلف بشأنها بين جامعة وجامعة ، أو قطر وقطر ، بغية توحيد المصطلح في الاستعمال ، إذ ما تزال مصطلحات كثيرة لم يُجمع رجال العلم عليها وما زالوا مختلفين بشأنها .

3 — أن نبحث عن طريقة ناجعة لتحويل مبدأ الالتزام بما تقره مؤتمرات التعريب العربية من مصطلحات الى إلزام تمارسه جهة ما لأن الالتزام لم يحقق ما نرجوه من توحيد للمصطلح .

4 — أن ننشط للتوسع في مشروعاتنا المتصلة بالتعريب والمصطلح لتشكيل خطة لغوية تدخل في نطاق التخطيط الشامل للثقافة العربية وتعنى بشكل خاص بما يلي :

1 — تعريب التعليم في شتى الفروع العلمية وجميع مستويات التعليم في الوطن العربي .

2 ـــ تعريب المجتمع العربي : الادارات والمصارف والتجارة والاتصال ...

3 ـــ تعريب وسائل الاعلام والاتصال باعتماد الفصحى وهجر اللهجات المحلية ..

4 ـــ تيسير تعليم اللغة العربية وتحسين طرائق تدريسها .

5 ـــ تعليم اللغة العربية للعرب المقيمين في خارج الوطن العربي .

6 ـــ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ونشر الثقافة العربية في العالم .

7 ـــ وضع الدراسات والبحوث اللغوية التي تساعد على مواءمة العربية للعصر الحديث ومتطلباته .

8 ـــ السير بالترجمة وفق الأسس والقواعد التي تضمنتها الخطة القومية للترجمة التي وضعتها المنظمة .

9 ـــ اقامة المؤسسات التي تعمل على صيانة اللغة ونشرها ودعم التعريب واشاعته في نطاق المعاصرة التكنولوجية والتقدم الحضاري مثل : المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ـــ بيت الحكمة الجديد ، والمعهد العربي للترجمة ، والجامعة العربية ، والمكتبة القومية المركزية .

10 ـــ أن ننشط البحث والدرس والتأليف في هذا الميدان بتقديم الجوائز التقديرية والتشجيعية ..

ومن المعروف أن هذه الخطط لم تغب عن بال المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، فكلها من اهتماماتها ومشروعاتها، وقد قطعت في بعضها أشواطا ، وتسعى للسير قدما في بعضها الآخر .

وخلاصة القول أن التعريب لا يخدم اللغة العربية وحدها بأن يمكّن لها في أرضها وخارج أرضها حاملة في ثناياها ثقافة أصيلة انسانية الى العالم ، بل يخدم كذلك المعاصرة التكنولوجية إذ لا اكتساب صحيح للمعرفة إلا باللغة الأم وبالتالي لا ابداع في مجال العلم والتكنولوجيا ولا مشاركة في حضارة العالم المعاصر إلا من خلال اللغة القومية .

إن الابداع ليس تقليدا والمشاركة ليست محاكاة ـــ بل كلاهما جهد ايجابي فاعل ، وتحرك سويّ مؤثر ، عمادهما العقل واللسان ، عقل العربي ولسانه ، العقل المتفتح واللسان الطليق . موصولين بالماضي متطلعين الى المستقبل الزاهر الذي ننشد .

لقد أعطينا العالم الكثير في مجال الفكر والثقافة ، وقمنا بأول حركة ترجمة منظمة هادفة في الزمن الماضي ، وواءمنا بين النظر والعمل والتفكير والتدبير ، وامتزجت في ثقافتنا حرارة الايمان ورصانة العقل . ولئن نأت بنا أحداث قاهرة عن الموقع الذي حللنا فيه أحقابا، فاننا اليوم نسلك طريقنا لاستعادة دورنا كي نعيش « العصر » الذي نحن فيه منتجين ومبدعين لا مقلدين مستهلكين ، ونحافظ في الآن ذاته على « الأنا » القومية المتمثلة بتراثنا الحضاري الضارب في أعماق التاريخ .